الوتر المشدود ..

قصة بقلم خالد الشريقي

تكاد تشعر بان عصفورا صغيرا ينقر قلبها ، وان كل خلية في جسمها تحتضر ، وان رجليها لا تقويان على حملها ، حتى انها تتمنى لو يتقدم منها اي رجل كانفي هذا الزقاق الضيق ، ويشيلها على يديه حتى يصل بها الى البيت .

ولكن هل يعقل ذلك ؟.. انها ستتحامل على نفسها وتسير كان شيئا ما لم يحدث ، وعندما تصل الى السلم ، ستستند على الحائط صاعدة الدرج .. تفتح الباب ، لتدخل الى المنزل بطبيعتها الهادئة ، وخطواتها المتزنة ، ولن تعجب من امها عندما ستسألها بوجهها المتغضن :

ـ اين كنت طوال هذا الوقت ؟

بل ستكذب عليها وتجيب :

ـ كنت في المدرسة !..

وهي على يقين بان امها لن تدعها تتم جملتها ، ستنزع الغضب ما بين حاجبيها ، وتقول بصرامة قد الفتها :

ـ الهذا الوقت ؟..

ـ اجل ... فقد مررت في طريقي على بيت سلمى ..

وستصم اذنيها عن ثرثرتها المعتادة ، لتتقدم من الهاتف وتدير ارقامه .. وتهمس :

ـ آلـــو ...

ـ .....

ـ لقد وصلت ...

.....

بعدها ستذهب الى غرفتها .. وتصفق الباب وراءها ... وترتمي على سريرها كتلة من اللحم ...

ولكن بيتها بعيد كأنه في بلد اخر ...

لو انها سمعت منه عندما قال لها :

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ...

اذن لما احست بهذا التعب ، ولربما استطاعت السير كعادتها دون ان تشعر بان قدميها لا تتحركان ، او ان بيتها يهرب منها ولا تستطيع اللحاق به... ومع هذا ، فان من يراها يستطيع ان يقرأ في عينيها فرحة لو كان بامكانها ان تعيرها الى انسان يائس لما فعلت . انها ستحتفظ بهـــا لنفسها .. ستطلي بها سواد ايامها الماضية .. وتكون اقوى من اليأس ، طالما تبرعم في صدرها سر اطبقت عليه جميع ابوابه..

ماذا لو حدثت امها بسرها الكبير ؟..

وهربت من بين شفتيها ابتسامة عجينيه .. لم تفكر بذلك ، لم تشعر في يوم ما بان لها اما،كل ما تشعر به خيط منالجوار يربطها بامرأة تعيش معها في بيت واحد.

وزحفت الى رأسها فكرة لم تستطع ابعادها ...

لقد حدثت اباها مرة عن شاب اسمر كان يسير وراءها صامتا كـل يوم في طريقها الى المدرسة ، لم تشعر بالخجل عندما اخبرته بذلك، حتى انها اصرت بعناد واكدت رغبتها في ان يصحبها الى المدرسة صباح اليوم التالي .

وقد فعل ... وشعرت باعتزاز ملأ نفسها عندما سارت الى جانبـه بقامته الطويلة ، وكتفيه العريضين ، حتى انها عندما لمحت ذلك الشاب الاسمر واقفا بانتظارها عند منعطف الشارع ، اشارت اليه بعينيـــها ، واستطاعت ان ترى حيرته واضطرابه عندما نظر اليه ابوها ، حتى ان ضحكة كبيرة كادت تفلت من بين شفتيها عندما رأته يغيب في ذلك الزقاق الضيق الذي يقف قريبا منه .

وقد ابتسم ابوها ، وطمأنها بان هذا الشاب الاسمر لن يظهر مرة ثانية وقبل ان يتركها استوقفها امام باب المدرسة وقال :

ـ ارقب في ان لا تسمع امك شيئا من هذا .. انت تعرفين امك.. فحادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

اجل تذكر ذلك ... حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

*

ظهر ذلك اليوم اتصلت بها سميرة بالهاتف وسألتها عما اذا كانـت ترافقها الى السينما ، وقد اعتذرت منها ، واكدت لها بان اباها قد وعدها بان يصحبها معه في المساء الى ذلك الفيلم .. وكانت كاذبة ..

احست في تلك اللحظة بفراغ هائل يفصلها عن الحياة ، فلم يعدها ابوها بما اخبرت به سميرة ، كل ما في الامر انها ارادت ان تتهرب من دعوتها، لانها على يقين بان امها لن تسمح لها بالذهاب الى السينما ان لم تكن برفقتها ، وبشرط ان لا تكون في الفيلم لحظة حب .

وعادت الى كتبها ..لاول مرة ترى الحروف تتراقص امامها بشكل لم تالفه من قبل ، حتى انها لم تستطع اخفاء حقيقتها عن نفسها ، فارادت ان تثور ، وان تتمرد ، وان تزرع الارض بالاوراق التي بين يديها .. لكنهـا لم تفعل .. وشعرت برغبة لان تتصل بسميرة وتخبرها عن عزمها في مرافقتها الى السينما .. لكنها لم تفعل ايضا ..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل . .

وجاء ابوها وقت المساء ...

كانت عيناها معلقتين بوجهه ، فقد تمنت لو تركض اليه ليحيطها بذراعيه القويتين ويشدها اليه حتى تذوب ، وارادت ان تبكي على كتفيهوان يدفن اصابعه في شعرها كما يفعل في كثير من المرات عندما تهرب من امها لتلتجـيء اليـه .

ماذا لو طلبت منه اصطحابها الى السينما ؟ الم تخبرها بعض رفيقاتها بانهن يذهبن دائما مع ابائهن او اخوانهن الى السينما ؟.

ليس لها اخ لتطلب منه ذلك ، ليس لها اخت لتشاركها هذا الطلب ، انها وحيدة لا تعرف غير ابيها ... فلم لا تساله اذن .

انها تذكر بان احدى رفيقاتها قالت لها مرة :

ـ ان المحب لا يبخل بشيء على محبوبته

وهو يحبها ، قال لها ذلك اكثر من مرة ، فلم لا تساله اذن ؟..

وتقدمت منه .. كان في جلسته ساكنا يقرأ في جريدة بين يديه، وكانت

تعرف ان امها في المطبخ تعد طعام العشاء ، وانها تستطيع الحديث اليه في هذه الغفلة ، فسعلت .. ونفضت فستانها ، ووقفت الى جانبه وكان لا يزال يقرأ ...

وسعلت من جديد ، وتعمدت ملامسة جريدته حتى جعلتها تهتز بشكل منع نظراته من متابعة الحروف ، فرفع اليها عينيه ، وابتسم ، واقعدهـا الى جانبه ، وربت على كتفها ، وقال :

ـ هل من جديد ..؟..اراكغيرطبيعية..

فهزت له رأسها ، غير طبيعية ، متى كانت طبيعية ؟.. وجمعت كل شجاعة لها في نفسها وقالت وهي تفرك احدى اصابع يديها :

ـ افكر في اني ساطلب منك ان تأخذني الى السينما هذا المساء

ومرت فترة صمت ، وكادت تتمنى لو انها لم تطلب منه شيئا لولا انه قـــال :

ـ ولكن امك .. ماذا نقول لها ؟..

واصرت :

ـ لا ازال افكر في هذا الطلب ...

ودخلت امها تحمل طعام العشاء ...

حادثة السينما لم يمض عليها وقت طويل ..

عندما جلست امامه على الطاولة المستطلية لم تشعر برغبة لها في الاكل ، كانت نظراتها تركض من وجه امها الى وجهه ، وكانت تعرف انه يفكر في شيء ما .. ترى هل ترقص في رأسه فكرة ذهابهما الى السينما؟.

ورفع اليها عينين لو رآهما انسان غيرها لجزم بانهما تدمعان ، وهـز لها رأسه ...

في تلك اللحظة شعرت بان فرحة عميقة قد استيقظت في اعماقها، حتى انها رغبت لو ان امها تذهب لعمل ما كي تركض اليه وتحيطه بذراعيها، وتقبله ، لم تعد بحاجة لان تأكل، لم تستطع ان تبقى هادئة في مكانها ، كانت تدفعها هذه الفرحة لان تعمل اي شيء فتركت نظرات امها معلقة بوجهها ، وركضت الى غرفتها لتطبق وراءها الباب ، لترقص ، لتدور حول نفسها ، لتغني بصوت منخفض ، لترتمي على سريرها ، لاول مرة شعرت بانهـا تنتصر .

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد

وفتحت باب غرفتها وخرجت ..

كانت تتوقع ان تثير دهشتهما ، فقد تعمدت ان تبدو كامرأة ، وان لا تهتم بابتسامة ابيها ، واستدارة عيني امها .

ونظرت اليه .. ونظر اليها .. وقال لامها بحركة تمثيلية :

ـ وعدتها بزيارة لبيت عمها هذا المساء.

وقبل ان تسمع جوابها كانت تنزل الدرج...

اي انسان في مثل سعادتها ..؟

كانت تسمع من بعض زميلاتها بان السعادة في حب انسان اخر ، انسان جديد لا يعيش معها في بيت واحد ، وكانت تضحك من هذا الرأي ، وتعتقد ان من يزعم ذلك محروم من حب ابيه ، كانت صور كثيرة تدور في رأسها وهي الى جانبه في طريقهما الى السينما ، صور لم تدم امامها اكثر من دقائق معدودات .. اي خير في انسان لا يعيش معها في بيت واحد .. اي نفع من شخص غريب عنها لا يربطها به اي شيء .؟.. هل تستطيع ان تحب هذا الانسان ؟.. اذن اي موضع لابيها في قلبها ؟؟..

ومرت امامها صور مهزوزة .. كانت احداهن تتغنى البارحة بقبلة من شخص غريب عنها .. وشعرت بقرف ، وجرى في كيانها نهر منالاشمئزاز كيف تسمح هذه للشخص الغريب بتقبيلها ؟ كيف تسمح له بذلك ؟.. وسرت في جسمها رعشة ، لم تتصور ان مثل هذا يحدث في غير السينما وبعض القصص والاشعار الموضوعة التي يكذب فيها مؤلفوها دون ان يكون هناك من يحاسبهم على كذباتهم الكبيرة .

ان رفيقاتها لا شك واهمات ، بل انهن بعيدات عن الحقيقة ، فدعد تشاركها هذا الرأي ، لقد وقفت الى جانبها عندما احتدم النقاش حول هذا الموضوع ، وسخرت من احداهن ايضا عندما قالت :

ـ ان من لم يعشق لا يعرف الحياة

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

*

عندما دخلت الى القاعة الكبيرة كانت تشعر بشلالات من الانظار تصب عليها ، شعرها الاشقر المعقوص ، فستانها الاخضر ، الساعة الذهبيـــة التي تلمع في يدها ، كعبها العالي ، مشيتها كامرأة . وخيل اليها بانهـا سمعت همسا من ورائها عندما قعدت على مقعد جانبي بقرب ابيها ، ومع ذلك لم تهتم بشيءكانت نظراتها مفروزة في الشاشة الكبيرة البيضاء.

تمنت في تلك اللحظة لو تشاهدها سميرة لتتأكد من انها لم تكذب عليها عندما اخبرتها ان اباها قد وعدها بان يصحبها معه في المساء .

حتى انها رغبت لو تكون قد رأتها احدى رفيقاتها وهي داخلة الـى القاعة الكبيرة .

لم تهتم بحوادث الفيلم ، لم تحضر لتشاهد صورا متحركة ، هدفهـا اكبر من ذلك ، انه يتصل بعالمها الصغير المغلق ، بحدودها الضيقة ، بالفراغ الهائل الذي يفصلها عن الحياة ، بالحواجز الكبيرة التي تقيمها امها انها تريد ان تثبت لنفسها بانها اصبحت امرأة ، وبان لها كيانا ، وشخصية خاصة .. ونظرت الى ابيها ، والتصقت به .

استطاعت في تلك العتمة ان ترى جانبا من وجهه ، حتى لقد خيـل اليها بانه يبتسم لفكرة ما في داخله ، هل تراه يتابع حوادث الفيلم ؟.

قبل ان تجيب نفسها لتعرف سر ابتسامته تنبهت لهمهمات ، وصفير انبعث من حولها ، فسكبت نظراتها على الشاشة من جديد ورأت شابا اسمر يمسح بفمه خد صبية شقراء تحاول ان تتمنع .

سرها هذا المنظر ، فهو تأكيد لما كانت تناقش به زميلاتها في المدرسة اذن لن تفكر في غير ما يمثل امامها ، خصوصا وانها ستخبرهن بقـصة ذهابها الى السينما مع ابيها ، فلربما لم تصدقها احداهن وامتحنتها ببعض المشاهد ، اذن لن تفكر في غير ما يمثل امامها .

وركضت صور سريعة كذكرياتهاورأتاشياء كثيرة ، وانتهىالفيلم... وكانت نهاية زمت لها شفتيها ، فقد سمحت تلك الصبية الشقراء للشاب الاسمر بتقبيلها .

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

لم تتصور عندما فتح الباب ابوها ان امها لا تزال يقظة ، كانت تعتقـد ان النوم يأكلها في تلك الساعة ، ومع ذلك لم تأبه بها ، كان شعور بالنصر يرقص في اعماقها ، يدفعها لان تضحك ، لان تغني، لان ترقص ، لان تقوم بعمل اشياء كثيرة لا تريدها في غير هذا الموقف . ووصل الى سمعها صوت ابيها :

ـ « الجماعة يسلمون عليك » .. ورغبت في ان تضحك اكثر من اي وقت مضى .. « الجماعة يسلمون عليك » .. لم لم يقل لها السينمـا تسلم عليك .. الشاب الاسمر .. الصبية الشقراء التي سمحت لـه بتقبيلها .؟ وفجاة ماتت في راسها كل فكرة ، وكادت لا تصدق ما تسمعه..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ...

لم تستطع ان تبقى في جمودها ، كان شيء اقوى من الفضول يدفعها لان تقترب من حجرة ابويها ، فتسللت على رؤوس اصابعها ، ووقفت محنية الظهر امام الباب المغلق ، وسمعت كل شيء .. وشعرت انها تكره ابيها الذي لا تكاد تسمع صوته، لكنها فوجئت به يفتح الباب بعصبية ظاهرة ، ويندفع باتجاه الخارج .. فركضت اليه .. استطاعت بيسر ان تتبين اليأس الذي نبت في وجهه، والكلمات المبهمة التي تتأرجح على شفتيه ، ومسكته من يده وقد استراحت الكلمات التي كانت تتأرجح على شفتيه ، فقال :

ـ لا استطيع ان اعيش معها....

ـ وهل تستطيع ان تتركني لوحدي ؟..

ـ انها شريرة ، لا تستطيع ان تنام اذا لم يعل صوتها فوق صوتي

ـ ستنام عندي.. فليست هذه اول مرة اطلب منك ذلك ، ان لهذه الليلة اخوات عديدات ..

وجرته من يده ، ودخلت به الى غرفتها ... وقبل ان يرتدي لباس نومه قدمت له فنجانا من القهوة ، ثم التصقت به وقالت :

ـ لقد اطفيء النور فيغرفتها ..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

لم تستطيع ان تغفو .. كانت حياتها تنتصب امامها بوضوح ، وكانت نظراتها ترتمي على ابيها الذي ينام على الاريكة بجانب سريرها .

واستدار على جانبه الايمن .. هل تراه يحاول ان يغفو .. ام انه لا يزال يفكر ؟..

انها لا تذكر بان اباها قد اساء الى امها في مرة من المرات ، انه لا يريد ان يجرح كرامة احد، ولا ان يكون السبب فيتعاسة احد، كان يصبر علىمسمار تدقه امها فيكرامته، ويحاول ان يصلحالاساءة بابتسامة او كلمة حلوة ، وكان هذا شعاره مع الناس ، فأحبه كل من تعرف عليه، واصبح صديق الجميع ، الا ان يكون صديقا لامها ..

وعادت كلمات امها قاسية كما سمعتها ، وشعرت انها المسؤولة عن المسمار الذي دقته في كرامته ، وانها السبب في نومه على الاريكة . لقد رفض ان ينام على سريرها عندما قدمته له ، واحتج بان الاريكة تتسع له ، وانه يستطيع ان يغفو عليها، طالما هو الى جانب ابنته الوحيدة التي يتحمل في سبيلها كل شيء .. وارادت وقتها ان تبكي .. وان تنام تحت قدميه ...

لم اعترف لامها بانه اخذها معه الى السينما ، كان بامكانه ان يضللها عندما عرفت بانهما لم يذهبا الى بيت عمها كما اخبرها في المساء .

كانت تقول بانها شعرت انه يكذب عليها ، فركضت الى بيت عمها بعد قليل من ذهابهما ، ولم تجد احدا .. فعادت وانتظرت

كان بامكانه ان يكذب عليها من جديد ، فالصدق لا يتمشى وطبيعة امها ، والصدق احيانا لا يتفق مع الحياة ..

لو انه كذب عليها لما نام فوق الاريكة ، ولما اتهمته بانه يريد ان يفسد اخلاق ابنته وان يعلمها العشق والغرام والرذيلة من السينما كما كانت تقول له .

كانت امها تقول بانها نشأت لا تعرف شيئا مما يعرفه بنات اليوم ، وبان السينما لم تكن موجودة ، حتى ولم يكن احد يعرف الراديو ، ومع كل هذا فقد كانت حياته في ذلك الوقت سعيدة اكثر منها في زمن السينما.

ولم يسكت ابوها ، سمعت كلماته بصعوبة ، قد سرها ان يقول لامها بان عصرها غير هذا العصر ، وان البنت اصبحت صبية ، وانها بحاجة لان ترى الناس وتخالطهم ، ولا مانع من ان تصاحب البعض منهم ، وكانت عند كل جملة تسمع تهكم امها وسخريتها المجنونة .

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ...

كان ابوها محقا عندما قال لها بعد ان طمأنها امام باب المدرسة بان ذلك الشاب الاسمر لن يظهر لها مرة ثانية ، كان محقا عندما قال :

ـ ارغب في انلا تسمع امك شيئا من هذا .. انت تعرفين امك ..

فحادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

ان اباها يعرف بانها لا تستطيع ان تحدث امها بشيء من حياتها ، بل انها لا تشعر ان لها أما ، كل ما تشعر به خيط من الجوار يربطها بامرأة تعيش معها في بيتواحد.

وحاولت في تلك اللحظة ان تبعد صورة اخيرة لابيها نبتت في راسها ، فتعمدت ان تسعل ، وان تلتفت وراءها وان تمسح شعرها ، وان تنقر باصابعها على الكتاب الذي بيدها محدثة صوتا تغلب على تركيز الصورة الاخيرة لابيها التي نبتت في رأسها . وارادت ان تتلهى باي شيء تراه في طريقها ، فلم تجد هذا الشيء ، وشعرت بان بيتها لازال بعيدا ، وتمنت لو انها سمعت منه ولمتعجلفي ذهابها اذن لما احست بهذا التعب الذي ملأ كل شبر من جسمها ، ولربما استطاعت السير كعادتها دون ان تشعر بان قدميها لا تتحركان ، او انبيتها يهرب منها ولا تستطيع اللحاق به . وتساءلت لو ان اباها بقي لها ألم يكن بمقدورها ان تحدثه بهذا السر الكبير ، وبالفكرة التي زحفت الى رأسها منذ قليل ولم تستطع ابعادها.؟

انما لو بقي لها .. أتراها يكون لها هذا السر الكبير ؟.. انها لا تدري ، فلم تشعر في ذلكالو قت انها بحاجة الى سر كبير ، كل ما كانت تشعر به ان لها ابا ملأ حياتها وجعلها لا تؤمن او تثق بانسان غيره، كان يشاركها دروسها ، ويسهر معها في كثير من الليالي ، ويقدم لها الهدايا ، وينتقي لها احسن الثياب ، ويمازحها ويروي لها النكات .. كانت حياتها لا تتسع لغيره ، كانت تؤمن بان الناس الطيبين لا يموتون .

وابعدت من تفكيرها مرة ثانية هذه الصورة الاخيرة لابيها ، وحاولت من جديد ان تتلهى بشيء تراه في طريقها ، فتعمدت ان تسعل ، وان تلتفت وراءها وانتمسح شعرها..انما سرعان ما سمرتيدها على اذنيها.. لقد نسيت قرطيها الجميلين على طاولته ..

تمنت لو انها سمعت منه ولم تعجل في ذهابها ، اذن لما نسيتهما على طاولته ، ولاعتنت باصلاح شعرها اكثر من اعتنائها به في تلك السرعة .

كان يقول لها وهي امام المرآة الصغيرة المثبتة على الحائط :

ـ انت جميلة وان لم تنبت في راسك شعرة واحدة ..

ثم يمد يديه ليمسح خصرها .. ويميل بشفتيه على عنقها ، وتحاول ان تتخلص منه :

ـ دعني اتم ترتيب شعري .. انتظر قليلا .. تاخر علي الوقت ..

ومن صميمها كانت ترغب لو انه يعبث بشعرها من جديد كما فعل عندما قعدت بجانبه على السرير .

كانت تحاول ان تبدو طبيعية ، وان تخفي اضطرابها ، وان لا تعتقد بانه يسمع ضربات قلبها ، ومع ذلك استطاعت بعد قليل من قعودها بجانبه على السرير ان تتغلب على نفسها ، وان تبدو كامرأة تعرف اكثر من شاب واحد ، حتى انه سألها عندما كان يمسح بفمه خدها الايسر :

ـ هل احببت احدا غيري من قبل ؟

ولم تدر لم ارتسمت امام عينيها صورة واضحة لابيها في تلك اللحظة، فهزت له رأسها ، وسمحت ليده ان تغيب تحت ذراعها ، ثم مالت حتى وشوش شعرها طرف وسادته .

من كان يصدق بان ذلك الشاب الاسمر الذي كان يسير وراءها صامتا في طريقها الى المدرسة سيقلع من حياتها شجرة اليأس التي زرعتها امها بعد موت ابيها ؟..

انها تعلم بان اباها كان صادقا عندما قال لها بان هذا الشاب الاسمر لن يظهر لها مرة ثانية فيطريقها الى المدرسة . كان صادقا ، لكنه لم يتكلم عن الزمن ، ولم تسأله منهذا، لانها كانت تعتقد بان الناس الطيبين لا يموتون .

ـ ..... انت تعبة .. وبيتك بعيد !!

لم تنكر دهشته عندما لمحته واقفا عند منعطف الشارع صباح اول يوم ذهبت فيه الىمدرستها بعد موت ابيها ، كانت تسير ملفوفة بالسواد ، كقطعة من الليل الذي هرب قمره ، ولم تنظر اليه ، لم تحاول ان تعرف اي سر يعيش في عينيه ، لان بركانا من الحقد تفجر في صدرها فيذلك الوقت،فقد ايقنت بانهذا الشابالاسمر لم يظهرلها بعدتلك الحادثة الا لانه علم بامر ابيها ، ولانه واثق من ان انسانا ما لن يرافقها في طريقها الى المدرسة كي يمنعه من ملاحقتها . فمرت من امامه كعادتها محنية الراس .. وشعرت باقدام تتبع خطواتها ، فلم تحاول ان تلتفت، كانت تعلم بان تلك الخطوات التي تسمعها هي لقدميه ... واسرعت في سيرها ، وازداد في سمعها وقع تلك الخطوات ، حتى وصلت الى مدرستها .

ـ لاتعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

وسرت في جسمها رعشة خفيفة .. وتمنت لو انها تدخل بيت دعد لتستريح فيه قليلا ، فهو لا يبعد عنها اكثر من زقاق واحد .

لكنها لم تفعل .. فقد رات نظرات امها القاسية ، وخيل اليها بانها تسمع صوتها المقوس :

ـ اين كنت طوال هذا الوقت ؟..

فدفنت رغبتها ، وتابعت خطواتها تسير في بركة من الوحل .

عندما لمحته صباح اليوم الثاني واقفا عند المنعطف لم تدهش ، فقد اكدت لنفسها وهي في طريقها الى المدرسة بان هذا الشاب الاسمر سيكون بانتظارها عند المنعطف ، حتى انها صممت ان تنظر اليه لتعرف اي سر يعيش في عينيه ، لكنها لم تستطع ، شعرت بشيء يربط عينيها بالارض . فمرت من امامه كقطعة من الليل ، وانتظرت ان تسمع صوت اقدام تتبع خطواتها ، لكنها لم تسمع . ودفعتها رغبة لان تلتفت وراءها . كان قد ابتعد عنها سائرا باتجاه العوده .

ودت في تلك اللحظة لو انها تركض اليه لتصفعه ، ، لم تنتظر منه ان يهينها بهذا الاهمال ، لم لم يلحق بها كعادته ، لم تركها قبل ان تسمع وقع اقدامه تتبع خطواتها ؟..

وابتسمت في سرها .. ما علاقتها به ؟ حرى بها ان تسر كما سرت يوم رأته يغيب في ذلك الزقاق الضيق الذي كان يقف قريبا منه عندما نظر اليه ابوها ، كان لها اب في ذلك الوقت ، فمن لها الان ؟ ، لا ام تستطيع ان تتحدث اليها ، لا اقارب تثق بهم ، لا صديقات يسمعن لها شكوى ، انها وحيدة كانها تعيش في عالم مات كل سكانه . واقتربت من صديقة لها انتحت بها احدى زوايا المدرسة :

ـ ما معنى ان يلحق شاب بفتاة ؟

ـ لا بد انه احبها

ـ وماذا يريد بحبه ؟

ـ ان يبثها شكواه

ـ واذا تركها في يوم ولم يلحق بها ؟

ـ يكون قد يئس منها

ـ الا يحاول مرة ثانية ؟

ـ اذا شجعته على ذلك

ـ وكيف تعلم الواحدة انها قد احبت ؟

ـ تزداد ضربات قلبها .. وتضطرب حركاتها .. وترتبك .. ان رأت شخصا تشعر انها بحاجة اليه

ـ وهل يحدث لك كل هذا اذا رأيت من احببت ؟

ـ اجل ولكن هل لحق بك احدهم ؟

ـ لا .. انما اخبرتني احدى الصديقات بان شابا اسمر يلحق بها كل يوم .

وشعرت بان صديقتها حاولت ان تفهم شيئا ، فتركتها ، ودخلت في حلقة جديدة مع زميلاتها .

اذن احبها هذا الاسمر ليبثها شكواه .. تراه له شكوى هو الاخر ؟ انها تعتقد بان كل شكاوى العالم تعيش في صدرها ، فاي سر يسكن قلبه اذن ؟ .

تمنت لو انها تعرف ، ورغبت لو انه ينتظرها في اليوم التالي عند المنعطف ، واقرب بانها ظلمته ، وان من حقه ان تبتسم له اذا رأته ، فلربما كان انسان ما كامها يظلمه ..

ولكن اي انسان يقسو كامها ؟.. انها لا تسمح لها ان تغادر البيت الا الى المدرسة ، وتمنعها من مشاركة رفيقاتها نزهاتهن ، حتى انها تحرم عليها الوقوف في شرفة المنزل ، وتصيح بها ان رأتها واقفة :

ـ عال جدا .. تعرضين نفسك على الناس .. هل انت عاشقة فتنتظرين حبيبا ؟ .

دتهينها ، وتضربها احيانا ، ولا تجد منفذا غير البكاء ، لا تستطيع ان تعترف لاحد بهذه القسوة ، ليس لها اب ليحميها من امها كما كان يفعل قبل موته ، ليس لها اي انسان .

حتى انها لا تسمح لها ان تطيل حديثها بالهاتف ، وان نسيت وتركتها في بعض المرات اكثر من الوقت المحدد لها ، راتها تركض اليها مسرعة لتسرق السماعة من يدها ، وتضعها على اذنيها صاغية للصوت المنبعث من الثقوب الصغيرة المدورة ، ثم تعيدها الى مكانها وتقول بصوت اجف

ـ لن استغرب ان سمعتك يوما تكلمين عشيقا لك..فانت على استعداد لذلك

ـ لاتعجلي في ذهابك ... انت تعبة ... وبيتك بعيد ...

*

كانت عيناها في اليوم التالي ترشان نظراتها على جانبي الطريق ، كانت تخاف ان تكون قد سبقته ، وكانت خطواتها بطيئة لدرجة ان من يراها من بعيد يحسب انها واقفة لا تتحرك ، وشعرت بضربات قلبها تزداد ، وكادت تضطرب ، فتمالكت نفسها ، وقفزت نظراتها الى المنعطف .. انما سرعان ما جمدت عيناها ، فلم يكن هناك اي انسان ، ولم تيأس بل اعتقدت انه لا بد ان يظهر لها ، فالتفتت وراءها اكثر من مرة .. لكنه لم يظهر .

وراح يدور الف سؤال في راسها الصغير .. لم يات كعادته .. هل يئس منها ، امن الضروري ان تبتسم له اول مرة تراه فيها بعد موت ابيها ، الا يعلم انها حزينة ، وانها لم تكلم احدا غريبا عنها من قبل ،

وانها تخاف من امها ؟ .. ولكن من اين له ان يعلم كل ذلك ؟..

دتساءلت عن سر اهتمامها به ، وكيف تحولت من عدوة الى صديقة ، الا انها تريد ان تقهر امها في نفسها وتحقق نبوءتها عندما كانت تقول :

ـ لن استغرب ان سمعتك يوما تكلمين عشيقا لك ...

ام انها تريد ان تستمع الى شكواه كما قالت صديقتها ، او ترغب في ان تحدثه بشكواها وقسوة امها عليها ؟ ..

كانت تحدث اباها بكل هذا من قبل ، فهل يستطيع هو ان يأخذ مكان ابيها .. وهل تستطيع هي ان تحبه كما كانت تحب اباها ؟..

وفكرت فيما لو كانت لها ام كبقية الامهات ، هل كانت تفكر بمثل هذا التفكير ، او تبحث عن انسان غريب عنها ؟

لاول مرة تمنت لو يكون للانسان اكثر من اب واحد ، وان لا تكون له اية ام .

عصر ذلك اليوم لم تدر اي شعور نبع من نفسها ، كانت تحس بان يدا خفية تضغط على صدرها ، وان قلبها بات صغيرا صغيرا يغوص في داخلها ، وان شيئا ما يمنع عنها الهواء ، وانها تتمزق .. وفكرت بعالمها الصغير المغلق ، بحدودها الضيقة ، بالفراغ الهائل الذي يفصلها عن الحياة ، بالحواجز الكبيرة التي تقيمها لها امها ، وارادت ان تثور وان تتمرد ، وان تمزق ثيابها ، فاندفعت الى شرفة المنزل كانها تبحث عن هواء جديد .

ـ عال جدا ... تعرضين نفسك على الناس . هل انت عاشقـــة فتنتظرين حبيبا ؟..

التفتت اليها بحقد ، ولم تقل شيئا ، انما ادارت لها ظهرها ، وتركتها في ثرثرتها المعتادة .

اجل انها تعرض نفسها على الناس ، انها عاشقة تنتظر حبيبا ، بل انها على استعداد لان تبتسم في وجه اي انسان ينظر اليها في هذه اللحظة ، لقد شعرت ان ابتسامتها الى ذلك الانسان هي خنجر تفرزه في صدر امها .

لمن تبتسم اذن ؟.. كانت عيناها تبحثان عن انسان ..

ودن جرس الهاتف ، كانت عيناها تبحثان عن انسان ، وكانت تنتظر ان تذهب امها اليه ، فلم تتحرك ، وطال رنينه ، وتاكدت بان صوت « وابور الغاز »قد منع امها منسماع صوته، فاضطرت لانتعلن المتكلم، وترفعالسماعة:

ـ آلـــو ...

ـ . . . .

ـ آلـــو ..

وجاءها صوت انسان خيل اليها بانه يائس

ـ انا يا آنسة ...

ـ من ... ماذا تريد ؟

ـ انا .. انا ..

ـ من انت .. ماذا تريد ؟

ـ انا آسف لازعاجك

ـ قل .. قل من انت

ـ كنت اريد ان اعزيك بفقد ابيك يا آنسة ، لكنك لم تتركي لي اي مجال

وشعرت بانها تريد ان تعرف صاحب الصوت ، وان خيطا من الصدق استطاعت ان تسمعه في لهجته فقالت :

ـ كيف .. انا لا اذكر ..

ـ بل ذاكرة لا شك يا آنسة .. لقد حاولت ذلك البارحة في طريقك الى المدرسة .. انما ..

واستدارت عيناها .. ورقص صوتها :

ـ انت .. انت الـ....

ـ اجل يا آنسة .... انا من كان ينتظرك في طريقك الى المدرسة ..

ـ ولكن لم تقل لي ذلك ..

وشعرت انها ضعيفة ، وانها تكاد تستسلم بسرعة ، فاضافت :

ـ دون ان تتبع خطواتي طبعا ..

وسمعت في تلك اللحظة صوت قدمي امها ، فركضت كلماتها :

ـ لقد جاءت امي .. لا استطيع ان اتابع حديثي

ـ اذن سأتصل بك غدا الساعة الخامسة .. هل تمانعين ؟..

ولا تذكر انها وافقت او رفضت ، كل ما تذكره انها اعادت سماعة الهاتف بسرعة الى مكانها ، وركضت الى غرفتها ..

غدا الساعة الخامسة ..

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

لم تصدق فرحتها ، لم ييأس الشاب الاسمر اذن ، لقد حاول من جديد ، ورغبت في ان تغني ، وان ترقص ، وان تمزق كتبها ، وان تدور حول نفسها حتى تدوخ .. ووقفت امام المراة .. لقد انتصرت على امها ..

واستيقظت في راسها صور كثيرة من حياتها الماضية ، وعاد اليها صوت احدى رفيقاتها :

ـ ان من لم يعشق لا يعرف الحياة

وارتسمت امام عينيها صور واضحة للصبية الشقراء التي سمحت للشاب الاسمر بتقبيلها في الفيلم ، وسمعته يقول :

ـ الحياة حرام بدون حب

ورغبت في ان تؤمن بما كانت تقوله لها زميلاتها في المدرسة ، بل لقد شعرت بانها واهمة عندما كانت تعتقد بان مثل هذا لا يحدث في غير السينما وبعض القصص والاشعار الموضوعة .

وتذكرت يوم رفضت ان تقرا كتاب شعر لنزار قباني عرضته عليهـا احداهن من قبل ، وصممت ان تستعير هذا الكتاب ، فهي بحاجة لان تعرف اشياء كثيرة خارج حدود بيتها المغلق .

*

صباح اليوم التالي كانت بها لهفة لان تراه في طريقها الى المدرسة ، كان بها شوق لان ترى في عينيه فرحته عندما ستبتسم له . وكان واقفا عند المنعطف يلف سلسلة صفراء رفيعة على اصابعه ، وحاولت ان تبدو طبيعية ، فلم تستطع ، لقد شعرت بانها ترتبك ، وان اصابعها ترتجف ، وان قلبها تزداد ضرباته بشكل لم تالفه من قبل ..

ـ وكيف تعرف الواحدة انها احبت ؟

ـ تزداد ضربات قلبها .. وتضطرب حركاتها .. وترتبك .. اذا رات شخصا تشعر انها بحاجة اليه

ونظرت اليه .. استطاعت ان ترى فرحته التي ازهرت في عينيه عندما ابتسمت له ، حتى انها رات فيه شابا خجولا ، وصورة قريبة الشبه من ابيها ، وسمعته يقول :

ـ الساعة الخامسة ..

فاغمضت عينيها .. وضمت الى صدرها كتبها .. وتابعت طريقها .. لكنها لم تسمع وقع اقدام تتبع خطواتها هذه المرة .

ولم تعد تشعر منذ ذلك اليوم انها بحاجة لان تصغي لثرثرة معلمتها

البدينة .

وانتظرت الساعة الخامسة كأن زمنا طويلا مر امامها . كانت لا تصدق انها ستحدثه بما في قلبها من هموم ، وانها ستستمع الى شكواه ، بل انها لم تصدق ان انسانا سيفهمها بعد ابيها .

واعترف لها بكل شيء عن حياته .. اخبرها بانه يعيش مثلها مع امه في بيت واحد بعيد عن بيتها ، وانه فقد اباه ايضا منذ الصغر ، وان اخوته يعيشون مع ازواجهم . كان واضحا لا يحاول ان يختبيء خلف اي ستار ، وراح نفسها منطلقة في حديثها عن ماساتها ، كانت تنثر اسم ابيها في كل جملة تقولها له ، وكانت ترغب لو انها تتكلم سنين طويلة دون ان تسكت ، لكنها لم تستطع ، فقد كانت امها تحدق فيها بعينين ذئبيتين .

وتواعدا في الخامسة من مساء الغد .. واصبحت الساعة الخامسة موعدا لحديثهما كل يوم .. وصار الهاتف شغلها الشاغل ، تركض اليه كلما سمعت رنينه ، وعاشت فترة حلوة .. لم تعد تسمح لامها ان تسرق السماعة من يدها ، لم تأبه لصياحها ، لم تعد كلماتها تذبح قلبها كما كان يحدث لها من قبل .. لاشيء غير حديث ناعم كالحب .

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

ودعاها الى بيته ، فلم تجسر ان تذهب ، وكرر الدعوة في ايام اخر .. ثم الح عليها صباح هذا اليوم ، فدلها على بيته ، وعين لها مكانه بالتحديد ، وقد عرفته .. انه قريب من بيت خياطتها ، ومدرستها تقع على طريقه .

وصممت ان تذهب ، دفعتها رغبة لان تراه عن كثب ، وترى شفتيه تتحركان بحديث ينسيها كل ما لديها من هموم ، فوعدته ، وقالت :

ـ ارغب في ان لا تكون امك في البيت ، اني اخجل ان اراها

ـ لا عليك .. ساتدبر الامر ..

ـ الساعة الثالثة بعد الظهر اذن ..

وهربت من مدرستها في تلك الساعة ، واتجهت الى بيته حاملة كتبها القليلة .

كانت تعتقد بان من يراها يعرف انها ذاهبة اليه ، كانت حذرة تراقب كل من يمر بها ، وكانت فزعة من مجهول ينتظرها في بيته .. بل كانت الف فكرة تموج في راسها الصغير .

ولمحت بيته الاصفر ، فاضطربت .. وارتبكت ، وخيل اليها بانه يراها من احدى النوافذ المغلقة ، ومع ذلك فقد كانت خطواتها متزنة تتقدم باتجاه بيته ، وقبل ان تفكر بامر الباب سمعت صريرا ، ورات الباب يفتح ، وشبحا يقف وراءه ، فادركت لتوها ما يقصده ، والتفتت وراءها لتتاكد من ان انسانا ما لم يلحق بها ، واقتحمت المستطيل الاسمر .. وشعرت بضربات قلبها المتزايدة ، وبرجليها المرتجفتين ، واحست انها تكاد تختنق ، وانها تذوب ، وان نارا قد اشتعلت في جسمها ، وان قلبها يغوص في اعماقها ، وان اصابعها ترقص فوق الكتاب الذي تحمله ، وانها لا تستطيع ان تنظر اليه ...

لكنها سمعت صوته عندما قدمت امامه دون ان تفهم شيئا . كان مضطربا هو الاخر لا يعرف بماذا يتكلم : فسالها اسئلة تافهة ، وحدثها حديثا ضائعا ، وكانت تهز له راسها ، وتسرق نظرة الى عينيه بين الحين والاخر .

وزايلها اضطرابها بعد قليل ، فشاركته حديثه ، ولم تعد تسرق النظر الى عينيه ، كانت تتامل وجهه الاسمر الشاحب ، وشفتيه الرقيقتين ، حتى انها رحبت بمرافقته لتتفرج على بيته عندما طلب منها ذلك .

ودخلت الى غرفته .. فابتسم لها الهاتف .. وشعرت في تلك اللحظة بان حياة جديدة تجري في عروقها ، وقعدت بجانبه على السرير ... كانت تحاول ان تبدو طبيعية ، وان تخفي اضطرابها من جديد ، وان لا تعتقد بانه يسمع ضربات قلبها .. ومع ذلك استطاعت بعد قليل من قعودها بجانبه على السرير ان تبدو كامراة تعرف اكثر من شاب واحد ، حتى انه سالها عندما كان يمسح بفمه خدها الايسر :

ـ هل احببت احدا غيري من قبل ؟

فهزت له راسها ، وسمحت ليده ان تغيب تحت ذراعها ، ثم مالت حتى وشوش شعرها طرف وسادته .. وكانت تشعر بان كرامة امها تموت تحت قدميها عندما قبلها ...

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

*

لا لم يعد بيتها بعيدا ، انها تراه الان امامها بظله الثقيل ، ولونه الازرق ، وشبابيكه الخضراء ، تراه بشكل لم يثر قرفها من قبل كهذه المرة .

ووقفت ببابه الكبير ...

انها تشعر بان عصفورا صغيرا ينقر قلبها ، وان كل خلية في جسمها تحتضر ، وان رجليها لا تقويان على حملها ، حتى انها تتمنى لو يتقدم منها اي رجل كان ، ويشيلها على يديه صاعدا بها الدرج ..

ولكن هل يعقل ذلك ؟..

وتحاملت على نفسها ، واستندت على الحائط .. ثم صعدت ... وفتحت الباب داخلة الى المنزل بطبيعتها الهادئة ، وخطواتها المتزنة ، ولم تعجب من امها عندما سالتها بوجهها المتغضن :

ـ اين كنت طوال هذا الوقت ؟

بل كذبت عليها :

ـ كنت في المدرسة ..

ولم تدعها تتم جملتها ، فزرعت الغضب ما بين حاجبيها ، وقالت بصرامة قد الفتها :

ـ الهذا الوقت ؟

ـ اجل .. فقد مررت على بيت سلمى في طريقي ...

وصمت اذنيها عن ثرثرتها المعتادة ... وتقدمت من الهاتف .. وادارت ارقامه .. وهمست :

ـ آلـــو ..

ـ .....

ـ لقد وصلت ...

ـ .....

ثم اتجهت الى غرفتها .. وصفقت الباب وراءها .. وارتمت على سريرها كتلة من اللحم .....

اللاذقية

خالد الشريقي